٤.البرناسية (الفنيّة)

المذهب البرناسي (الفنّـي) :

على عادة الفكر الغربي في تسفيه كل مـا تقـدّم ـ علـى نحـو مـا رأيـت فيمـا عرضنا له من المذاهب والتيارات ـ ما لبث نجـم الرومانسيـة والواقعيـة وغيرهمـا أن أفل ،وأطلّ نجم مذهب جديد ينسف ما سبقه ، ويثور عليه ، وهو المذهب البرناسي ، أو المذهب الفنّي ، أو مذهب الفنّ للفنّ « Art for art sak » .

أصل التسمية :

يرتبط هذا المذهب الأدبي الجديد بجذور الفكر اليونـاني الوثنـي ، فـهو ينسـب إلـى جبـل البرنـاس الشـهير فـي بـلاد اليونـان ، وهـو جبـل تزعـم الميثولوجيـا ـ أي الأساطير والخرافات ـ الإغريقية أنـه مقـر «أبولـون» وهـو ـ فـي أسـاطيرهم ـ أجمـل الآلهة ، ورب النور والفنون والعرافة ، وهو عندهم مهبط الإلهام الشعري .

وهذا يذكرنا بما كـان يعتقـده العـرب فـي جاهليتـهم عـن«وادي عبقـر» الـذي تسكنه الجن والعفاريت التي تلهم الشعراء ما يقولون مـن الشـعر ، حتـى صـار كـل متميّز موهوب ينسب إلى هذا الوادي الخرافيّ ، فيقال :عبقريّ .

وشبّه الدكتور محمد مندور جبل البرناس هذا بعكاظ ، سوق الشعر عند العـرب فـي الجاهلية ، وقال : إن هذه التسمية ـ البر ناسـية ـ «يمكـن مـع شـيء مـن التجـوّز أن تُعَرَّب بقولنا :عكاظ الجديدة »[1] ونحن نرى أن تشبيهها بوادي عبقر أقرب .

ويسـمّى المذهـب البرناسـي أيضـاً بـالمذهب الفنـي ، أو الفـن للفـن ، وذلـك لاعتماده على الفنية المطلقة كما سنرى .

نشأة البرناسية :

نشأ المذهب البرناسي ـ المنسوب إلى جبل البرناس اليوناني ـ في فرنسا ، مـهد معظم المذاهب والتيارات الأدبية والفلسفية ، وذلك في النصـف الثـاني مـن القـرن

---

(١)الأدب ومذاهبه : ص١٠١ .

التاسع عشر ، وأطلق على طائفة الشعراء الفرنسيين الذين تبنّوا هذا المذهب اسم «البرناسيين» وقد أصدروا مجلة عنوانها«البرناس المعاصر» نشروا فيها إنتاجهم[١] .

ويذهب الدكتور مندور إلى أن هذه التسمية أطلقها مصادفة أحد الناشرين الفرنسيين على مجموعة من القصائد التي نشرها في مجلد واحد لطائفة من الشعراء الناشئين ، وسمى هذه المجموعة باسم «البرناس المعاصر» إشارة إلى الجبل المشهور ببلاد اليونان[٢] . ثم شاعت هذه التسمية للتعبير عن هذا المذهب الأدبيِّ الجديد .

وذُكر أن من شعرائهم : سولي برودوم ، وفرانسوا كوبه ، وما لَـرْ مَه ، وغيرهم ، ولكنّ من أشهرهم تيوفيل جوتييه ، ولوكونت دي ليل الذي يعد زعيم المذهب البرناسي .

الخصائص العامة للبرناسية :

جاء المذهب البرناسي هادماً لما نادت به الرومانسية والواقعية ، ونادى أصحابه الذين اختلفت أمزجتهم فيما بعد بمجموعة من الأصول العامة ، من أبرزها :

١ـ نادى المذهب البرناسي بـ«اللافردية» وكان ذلك احتجاجاً على الذاتية التي وسمت الرومانسية ، ورفضاً للفردية التي نادت بها ، فقد أغرق الرومانسيون ـ كما هو معروف ـ في إظهار العواطف ، وسكب الأحاسيس والمشاعر الذاتية ، فجاءت **البرناسية** تدعو الشاعر إلى الترفّع عن عرض مشكلاته وهمومه الخاصة في شعره ، وعن جعل الشعر معرضاً لذاته ، وإظهار أفراحه أو أتراحه للناس .

ورأت أن على الشاعر أن يكون «موضوعياً» يهتم بالجمال فحسب ، ويعدّ الشعر غاية في حد ذاته لا وسيلة للتعبير عن الذات .

إن الشعر عند **البرناسيين** ليس معرضاً للمشكلات والهموم والقضايا النفسية والاجتماعية وغيرها ، إنه ـ في رأيهم ـ أسمى من ذلك ، إنه «موضوعي» يعرض الجمال المجرد عن أي غاية .

إن البرناسية ثورة على الرومانسية تأخذ عليها ابتذالها وإسرافها في الغنائية والذاتية والشجن الفردي .

---

(١)المعجم الأدبي ، لجبور عبد النور : ص٥٠ . .

(٢) الأدب ومذاهبه: ص١٠١.

إن الشعراء البر ناسيين ـ وهم يتسمون بهذا الاسم ـ إنما يشيرون ـ كما يقول الدكتور إحسان عباس رحمه الله ـ إلى أنهم «يستمدون وحيهم من رب الشعر مباشرة ، وينأون عن مستوى الرجل العادي[1]» .

إنهم يدعون الشاعر أن ينأى عن عرض أفراحه أو أتراحه الخاصة على الناس ، وإظهارهم على دخيلة نفسه ، ويرون في ذلك تهويناً من شأن الشعر ، لأن الشعر يُتَّخذ غاية ، أي يُوَظّف وسيلة للتعبير عن الذات ، بينما الشعر ـ كما يراه هؤلاء البرناسيون ـ هو غاية في حدّ ذاته ، ولا غاية له .

٢ـ ومن الواضح مما تقدّم أن البرناسية هي دعوة إلى الفنية المحضة ، إلى مبدأ «الفنّ للفنّ» أو الفن من أجل الفن ، وهي نظرية تدعو إلى تحرير الفن ـ بأشكاله كافة ـ من الوظيفة ، أو الغائية ، أو الرسالة ، وتحدّد مهمته في إحداث الإحساس الجمالي ، بلا اعتبار لأي مبدأ ديني ، أو خلقي ، أو اجتماعي ، أو سياسيّ ، أو ما شاكل ذلك .

إنها دعوة إلى الرجوع بالفن إلى حقيقته الجمالية المجردة عن أية غاية ، وإلى عدّ هذا الجمال هو الغاية في حدّ ذاتها . وعلى الرغم من أن مبدأ «الفنّ للفنّ» لا يعني بالضرورة التحلل من قواعد الأخلاق ، إلا أن بعض دعاته نحا به أحياناً هذا المنحى ، فزعم أن النفعية تفسد الفن .

قال تيودور جوتييه ـ على سبيل المثال ـ : «إن الأشياء تبدو جميلة بنسبة عكسية للمنفعة[2]» .

والحق أن مبدأ «الفنّ للفنّ» قد عرف في فرنسا قبل البرناسيين ، مهّد له الرومانسيون ، ثم نادى به طائفة من الشعراء المشهورين ، مثل «تيوفيل جوتييه» و«بانفيل» ثم تبناه بعد ذلك البرناسيون ، وتحمسوا له ، وجعلوه ركناً من أركان مذهبهم[3] .

٣ـ والمذهب البرناسي ـ كما قلنا ـ هو مذهب فني ، وهو لذلك يعلي من شأن الشكل ، ويعدّه الأساس في العمل الأدبي ، وهو لا يقيم أي وزن للمحتوى ، ولا

---

(١)فن الشعر : ص٥٨ .

(٢)المذاهب النقدية للدكتور ماهر حسن فهمي :ص١٨ .

(٣)النقد الجمالي ، لأندريه ريشار ، ترجمة هنري زغيب :ص١٢١ .

يحفل به ، أو يلقي إليه بالاً ، فهو مذهب شكلاني ، يرى جمال العمل الأدبي في الصياغة وحدها ، مُغْفلاً ما فيه من معان وأفكار وأحاسيس ، فما دام الشاعر يجوّد الصياغة ، ويمتلك المهارات الأسلوبية في التعبير فذلك حسبه .

٤ ـ اعتنى أصحاب المذهب البرناسي بالشعر الغنائي على وجه الخصوص ، إذ وجدوه الأقدر على التعبير عن «اللافردية» التي نادوا بها ، وقد أهملوا أجناساً أدبية هامة : كالرواية ، والقصة ، والأقصوصة ، وهي الأجناس التي عنيت بها المدارس الواقعية التي عارضت ـ كالبرناسية ـ الرومانسية .

بل إن البرناسية ـ في سبيل هذا الحرص على الحقيقة الجمالية وحدها ، وعلى تنزيه الشعر عن الغاية ، وإبعاده عن الهلهلة والابتذال ـ ضيّقوا من مجال التجربة الشعرية ، فاقتصر شعرهم ـ بحكم طبيعته التي تحدثنا عنها ـ على فن الوصف[1] .

(١)الأدب و فنونه : ص١٠٥ .

obeikandl.com

لا يقر الإسلام آراء المدرسة البر ناسية ، إذ تتجافى آراؤها الفكريـة والفنيـة مـع تصوراته للكون والإنسان والحياة ، وأسلوب تعبيره الفني عن ذلك . . . .

أ ـ التصورات الفكرية :

يرتبط المذهب البرناسيّ ـ من حيث التسمية ـ بالفكر اليوناني الوثني ، إذ هو ـ كما مرّ ـ منسوب إلـى جبـل «البرنـاس» الـذي تدّعـي الأسـاطير اليونانيـة أن آلهـة الشعر كانت تسكنه .

كما يرتبط هذا المذهـب بفلسـفة خاصـة عـن الحيـاة والإنسـان مسـتمدة مـن «البوذية» وفلسفتها عن «النرفانا» خاصة .

يقول الدكتور محمد مندور عن الشاعر الفرنسي «لوكونت دي ليل» الذي يعـدّ المؤسس الحقيقي للمذهب البرناسي : «إن هذا المذهب لم يستقر عليه لو كونت دي ليل إلا بعد أن استوت له فلسفة خاصة فـي الحيـاة ، وهـي فلسـفة كـان يحلـو لـه دائماً أن يرجعها إلى الديانة البوذية التي ربما كان سبب انسياقه نحوهـا هـو ميـلاده ونشأته في جزيرة بربون إحدى مستعمرات فرنسا في جزر الهند الشرقية .

وهذه الفلسفة تسخر من ألم الإنسان وبكائه ، وترى أن «النرفانا» هي سبيل خـلاص الإنسان ، والنرفانا في البوذية هي حالة نفسية تحقق للفرد الجنة التي وُعِدَهـا المؤمنـون فـي الديانات الأخرى ، وهي جنة تتحقق للفرد في عالمنا هذا إذا استطاع أن يميـت الرغبـة فـي نفسه ، وإن تكن إماتة الرغبة هي ـ في الواقع ـ بمثابة إماتة للحياة نفسهـا . ولذلـك يتمـرد الشاعر على بكاء الإنسان الذي لا ينقطع بسبب رغباته الخادعة المحرقة ، فيقول : «كم من القرون قد ماتت منذ أخذ الإنسان يبكي؟وأخذت الرغبة المتكالبة تخدعنا وتحرقنا بجذوتها الأشد ضراوة من النار التي لا تخمد؟ . .[1]» .

---

(١)الأدب و فنونه : ص١٠٣ .

بل ترى الشاعر لو كونت دي ليل ـ الممثل للبرناسية أوضح تمثيل ـ يتخذ من التلهف على الفناء مادة خصبة لشعره ، ويغبط الموتى على ما أصابوا من نعيم في الفناء وأكل الديدان لهم فيقول :

أيها الموتى ، الموتى السعداء الذين تفترسهم الديدان النهمة ، وأنت أيها الموت المقدس الذي يلج كل شيء رحابك ويُمْحَى ، تقبّلْ أطفالك في صدرك المرصَّع بالنجوم ، خلّصنا من الزمن والعدد والمكان ، وأرجع إلينا الراحة التي أنزلت بها الحياةُ الاضطراب» .

ويقصّ «دي ليل» قصة ثلاثة من البراهمة عجزوا على أن يصلوا إلى «النرفانا» وبالتالي عجزوا عن أن يصلوا إلى الكمال : أحدهم لأنه لم يستطع أن يتخلّص من الرغبة ، والثاني من الذكرى ، والثالث من الشك ، فعاقتهم هذه الأثقال عن أن يبلغوا الهدف[1]» .

ومن الواضح أن هذه الأفكار لا تتفق مع التصور الإسلاميّ للإنسان وطبيعته ، فالإسلام لا يطالب الإنسان أن يميت رغباته وتطلعاته التي خلقها الله فيه ، بل هيّأ له وسائل تحقيقها بالحلال الذي شرعه الله ورسوله ، فالإنسان روح وجسد ، وله ـ في كليهما ـ رغبات وأهواء لا يميت شيئاً منها ، ولكنه يحققها بالطرق المشروعة .

قال تعالى : ـ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

وقصة الرجال الثلاثة الذين جاؤوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يريدون أن يتعالوا على رغبات محلّلة لا تخفى على أحد ، وبسبب من ذلك لم يوافق النبي المعلّم عليها ، فأحدهم أراد أن يتعالى على الرغبة الطبيعية في النساء ، فقال :«أنا لا أتزوج النساء» والثاني يريد أن يتعالى على الرغبة الطبيعية في الطعام ، فقال : «أنا أصوم ولا أفطر» والثالث يريد أن يتعالى على الرغبة في النوم ، والحاجة الطبيعية إلى الراحة ، فقال :«أنا أقوم الليل ولا أنام» فما وافق النبي عليه السلام أحداً على رأيه ، ولا رأى قتل هذه الرغبات ، أو دعا إلى إماتتها كما ترى البرناسية على لسان أبرز

(١)الأدب و فنونه : ص١٠٣ .

ممثليها«لو كونت دي ليل» بل أعطاهم المثال القدوة من نفسه ، وبيّن لهم أن حالة الاستواء النفسي للإنسان لا تتحقق إلا بتحقيق رغباته تحقيقاً شرعياً سليماً . قال لهم : «أما أنا فأتزوج النساء ، وأصوم وأفطر ، وأقوم الليل وأنام . فمن رغب عن سنتي فليس مني» .

كما أن من تهافت أفكار البر ناسية التي يرفضها الإسلام تشهّي الموت وتمنيه ، والمسلم منهي أن يتمنى الموت : «لا يتمنين أحدكم الموت» ، فالموت والحياة بيد الله تعالى ، وتمني الموت كأنه تدخل في قدر الله ، أو يأس من الحياة ، أو هروب منها ، وكلّ ذلك خارج عن دائرة التصور الإسلاميّ .

ب ـ التصورات الفنية :

إن كثيراً من التصورات الفنية التي قدمتها البر ناسية عن طبيعة الأدب ووظيفته ، وقيمته ، مخالفة كذلك للتصور الإسلامي الأدبي ، وبيان ذلك :

(١) ـ إن فكرة «الفنّ لأجل الفنّ» التي هي أهم أركان المدرسة البرناسية حتى سميت هذه المدرسة كذلك باسم «الفن للفن» منافية لروح المسؤولية التي يدعو إليها الإسلام في كل شيء ،ومن ذلك الكلمة التي لها شأن خطير جداً .

الكلمة في الإسلام مسؤولية وأمانة ، وهي ليست غاية في حدّ ذاتها ، بل هي ذات وظيفة وهدف ، ولذلك فإن المسلم محاسب عليها ، وهي ـ ككل شيء ـ لم تخلق عبثاً ، أو للهو ، أو لمجرد التفاصح ، وسبي عقول المخاطبين ، أو لنحت الجمال المجرد ، وبعث أحاسيس النشوة واللذة كما يقول البرناسيون .

لقد علمنا القرآن الكريم وأحاديث النبي ـ ﷺ ـ في مواطن كثيرة أهمية الكلمة ، وخطرها ، والمسؤولية عنها ، فهي التي تكبّ صاحبها في النار ، أو ترفعه إلى الجنان ، ومن ثم فإن كلام الإنسان مَحْصِيّ عليه ، وهو كلُّه ـ كما قال النبي ـ عليه السلام ـ «عليه ، لا له ، إلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر ، أو ذكراً لله[1]» .

---

(١)رواه الترمذي : ٢٣٣١٤ .

إن فكرة الفن للفن ـ كما يقول الناقد الفرنسي أندريه ريشار ـ «تجعل من الفنان شخصاً معزولاً . .[1]» .

وهي تعني عبادة الجمال المجرد ، والتغني في محرابه ، وتجريد الفن من الوظيفة والغاية والهدف ، فيصبح الفنان في هذه الحالة ـ كما يقول أوسكار وايلد ـ داعيةُ هذا الاتجاه ـ مجرد ـ «صانع للأشياء الجميلة[2]» ويصبح الجمال وحده مقياس الفن ، من غير اهتمام بالمضمون ، أو النظر إليه أصلاً .

(٢) ـ فالبرناسية ـ إذاً ـ لا تهتم بمضمون العمل الأدبي ، وتنظر إلى الأدب على أنه محض شكل وقالب ومبنى ، على حين أن التصور الإسلاميّ للأدب يهتم بالشكل والمضمون معاً ، ولا يهمل أحدهما ، أو يغض من قيمته على حساب الآخر .

إن الأدب الإسلاميّ ـ مثلما يحرص كل الحرص على جودة الشكل ، وجمالية التعبير ، وأناقة الصياغة ـ يحرص كذلك كلَّ الحرص على المضمون النبيل ، والمعنى الشريف ، يحرص على الفكر السليم الذي يغني حسّ الإنسان وعقله ، ويقدّم الغذاء الفكري الجاد ، والتصور الصحيح عن الكون والإنسان والحياة .

(٣) ـ إن الشكلانية في الأدب ، والجمالية البحتة فيه ، تعنيان أن ينسحب الأدب من الحياة وألا يكون له أي دور فيها ، تعني ـ كما يقول أندريه ريشار ـ :«أن ينسحب من العالم ليس الفنان وحده بل الفن كذلك . .[3]» .

وقد أنتجت فكرة «الفن للفن» بعد ذلك فكرة عدم مسؤولية الأديب ، وصورت الأديب سلبياً ، عاجزاً عن تغيير مجتمعه ، بل غير معني به ، بل غير مطالب بذلك أصلاً .

---

(١) النقد الجمالي : ص١٢٣ .
(٢)الاشتراكية والأدب :ص١١ .
(٣)النقد الجمالي : ص١٢١ .

وهي تعني ـ من وجه آخر ـ اهتماماً بالفرد على حساب المجتمع أو الناس والحياة ، وهي عندئذ تعزل الأدب عن الدين والأخلاق والسياسة ، وعن سائر المقومات الإنسانية وعناصرها الدائمة السامية ، وتزعم أن الفن دولة مستقلة ذات سيادة ، ليس فيها من سلطان ولا رعايا إلا الجمال ، وليس لها من حدود أو تخوم أو شرائع أو قوانين إلا ما رسمه الجمال . وفي مثل هذه الدولة تكون غاية الغايات هي اللذة أو السعادة ، وإنها حقاً لغاية من غايات الحياة ، ولكنْ إن قلنا إنها الغاية الوحيدة ، أو الغاية التي لا غاية وراءها ، فقد جعلنا من الحياة شيئاً ساذجاً لا يستحق أن يعاش . .[1]» .

(٤) ـ وقد يتطرف أصحاب هذا الاتجاه الفنيّ في الأدب فلا يكتفون فقط بالدعوة إلى تجريده من أية وظيفة اجتماعية ، أو خلقية ، أو دينية على نحو ما بيَّنا ، بل يزيدون على ذلك عندما يرون أن الفن الأصيل هو الذي لا نفع فيه أبداً ، وأنه لا يقف أبداً في صف الفضيلة ؛ لأن ذلك يضر به ضرراً فادحاً ، إذ يؤدي ـ في زعمهم ـ إلى إضعافه أو إطفاء جذوة إبداعه .

يقول أحد نقاد هذا الاتجاه : «إن الأشياء تبدو جميلة بنسبة عكسية للفائدة . .[2]» وكان أوسكار وايلد يقول : «الفن كله لا نفع فيه . .[3] .

وكان جورج صاند يقول : « من كان أخلاقي النزعة لن يصبح فناناً» .

(٥) ـ ولقد كانت مدرسة «الفن للفن» في حقيقة الأمر صرخة احتجاج في وجه بعض المدارس الأدبية الواقعية ، التي دعت إلى تجنيد الأدب في خدمة المجتمع والحياة وقضايا الناس ، فاهتمت بالمضمون اهتماماً مبالغاً فيه على حساب الفن وجمالياته ، فجاء أدبها ساذجاً مباشراً أشبه بالوعظ والإرشاد منه بالأدب الذي لا يجوز ـ تحت أي مسوّغ ـ إهمال الشكل فيه ، أو التغاضي عن جماليات التعبير وأصول الفن .

---

(١)الاشتراكية والأدب :ص١٣ .

(٢)انظر المذاهب الأدبية ، لماهر حسن فهمي : ص١٨ .

(٣)الاشتراكية والأدب : ص١٢ .

ومثلما أسرف أصحاب الأدب من أجل المجتمع أو الأدب الهادف ، أو الأدب الملتزم ، أو ما شاكل ذلك من التسميات ، في إهمال الشكل من أجل المضمون ، أسرف ـ في المقابل ـ أصحاب «الفن للفن» في العناية بالشكل ، وإهمال المضمون ، حتى سمى بعض النقاد مدرسة «الفن للفن» هذه بـ«المدرسة الهيدونية»أي مدرسة عبادة الجمال[1] .

والتصور الإسلامي للأدب يخالف ـ كما ذكرنا ـ عن هذه التصورات جميعها ، فهو أدب الكلمة الهادفة الخيّرة المصوغة في قالب التعبير الفني الجميل ، أدب المضمون والشكل معاً ، ولا يشفع سمو أحدهما للآخر إن كان خابياً منطفئاً .

(٦) ـ وأخيراً نقول إن المذهب البرناسي ضيّق من آفاق الأدب الرحبة الواسعة ، وقدّم له نظرة محدودة عندما حصره في الشعر فقط ، بل الشعر الغنائي وحده ، بل في غرض الوصف على وجه الخصوص ، حرصاً ـ كما عرفت ـ على نقائه ، وتجريده عن الغاية . .

والأدب الإسلامي رحب واسع يطرق جميع الأغراض ، ويبدع في جميع الأجناس الأدبية في إطار تصوره الفكري للكون والحياة والإنسان .

---

(١)السابق .